حقوق غير المسلم في الاندلس

أ.م.د. رغد جمال مناف

ملخص البحث

يشكل اهل الذمة طبقة من طبقات المجتمع الاندلسي ، والذمة تعني في اللغة "العهد والامان والضمان"، ويطلق هذا اللفظ على اهل الاديان الاخرى ولاسيما النصارى، الذين ظلوا على ديانتهم وعاشوا في المجتمعات الاسلامية في مقابل دفع الجزية التي حددتها الشريعة الاسلامية، وقد كفل الاسلام الحرية الدينية لاهل الذمة كممارسة شعائرهم وطقوسهم،دون تدخل من الدولة وفقا لقوله تعالى""لكم دينكم ولي ديني" فالقران الكريم اعطائهم الحرية لممارسة دينهم، والاحاديث النبوية اعطت واكدت ما جاء به الدين الاسلامي.

لقد تمتع اهل الذمة (النصارى واليهود) بحريتهم الدينية ، وعاشوا الى جوار المسلمين في حرية وامان وسلام في احيتء خاصة بهم ، لهم قضاء خاص ، حيث تسامح المسلمين مع النصارى واليهود الذين عاشوا تحت الحكم الاسلامي في الاندلس ، وكانوا موضع اجلال الحكام ومحل ثقة الامراء والخلفاء ، وبرز العديد منهم في النواحي العلمية كالطبيب الخاص للخليفة (حسداي بن شبروط) والموسيقى شمعون والوزير اسماعيل ابن نغزاله الذي لعب دورا بارزا في مدينة غرناطة الاندلسية وهذا ما سنتحدث عنه خلال بحثنا.

The rights of non-Muslims in Andalusia

Dr Raghad Jamal Manaf Al-Azzawi
University doctor of Baghdad / Ibn Rushd College of Education

the people of the dhimma constitute a class of the Andalusian society, and the dhimma means in the language "covenant, safety and security." The religious people of the dhimma are like practicing their rituals and rituals, without interference from the state, according to the Almighty's saying, "You have your religion and my religion." The Holy Qur'an gave them freedom to practice their religion, and the hadiths of the Prophet gave and confirmed what the Islamic religion has brought.

The people of the Dhimma (Christians and Jews) enjoyed their religious freedom, and they lived next to the Muslims in freedom, safety and peace in their own neighborhoods. And many of them have emerged in the scientific aspects, such as the private physician to the caliph (Hasdai ibn Shabrout), the musician Chamoun, and the minister, Ismail Ibn Nagzaleh, who played a prominent role in the Andalusian city of Granada, and this is what we will talk about during our research.

اهل الذمة (المستعربون) وحقوقهم في الاندلس:

يتكون المجتمع الاندلسي من العديد من الطبقات منهم المولدون والصقالبة والمستعربين ويقصد بهم اولئك النصارى الذين عاشوا في مدن الاندلس كغرناطة* وغيرها، وقد عرفوا بالمستعربين بفتح الراء، لانهم استعربوا لغة وزيا اي انهم ارتدوا الزي العربي بارداتهم ، واتخذوا بارداتهم العربية لغه ، فاقبلوا على شعر العرب وادابهم ، ويرجح الكاتب المحدث سعيد عاشور انهم تعلموا العربية لمسايرة الوضع الجديد، في حين ذكر احد قساوستهم واسمه (ألفرو) القرطبي :(ان اخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ويقبلون على دراسة مذاهب اهل الدين والفلسفة المسلمين، لكي يكتسبوا اسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وهم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها ويفخرون في كل مكان بان هذه الاداب جديرة بالاعجاب والاحترام ، فانك تجد منهم من ينظم الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا).[1]

ومن المعروف عنهم انهم اتقنوا اللغة العربية الى جانب لغتهم الرومنثية(هي الاسبانية القديمة المتولدة من اللاتينية والتي تطورت منها الاسبانية المكتوبة والمحكية اليوم في اسبانيا ودول اميركا اللاتينية، وعاشت بين أوساط المسلمين العرب بحيث أصبحت قبائل عربية تجيدها ، واتخذوا اسماء عربية الى جانب اسمائهم المسيحية ، وبحكم معرفتهم اللغتين فانهم لعبوا دورا هاما في نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الممالك الاسبانية وبفضلهم انتشرت عاداتهم وتقاليدهم، وقد ترك المسلمون لهولاء المسيحيين حريتهم في البقاء على دينهم وفي مزاولة شعائرهم ، فتجاورت المساجد والكنائس في تسامح واختلطت نداءات المأذن بدقات الاجراس في محبة ، وتعايش المسلمون والمسيحيون في الاندلس على مبدا الاخوة ، وقد بهرت الحضارة الاسلامية هولاء

المسيحيين الذين كانوا يعايشون المسلمين في الاندلس ، فاخذوا من هذه الحضارة ومن المسلمين الشي الكثير في لغتهم وتعلموا ثقافتهم بل لبسوا ملابسهم وعاشوا الى حد كبير على نمط حضارتهم.[2]

ولربما اكبر دليل على تعايش بين المستعربين والمسلمين قولا للمستشرق مونتغمري في كتابه(تاريخ اسبانيا الاسلامية) : (ان شبابنا المسيحيين بمظهرهم الانيق وفصاحتهم متصنعون في ملبسهم ومركبهم ومشتهرون بعلوم الوثنيين وهم بسبب شغفهم بالفصاحة العربية يتهالكون على كتب الكلدانيين (المسلمين) ويلتهمونها ويناقشونها بحماسة ، ويشهرونها بثنائهم عليهم مستخدمين في ذلك كل ساحر من البيان جاهلين كل شي عن روعة ادب الكنيسة ناظرين بازدراء الى انوار الكنيسة التي تفيض من الجنة ياللاسف ان المسيحيين يجهلون تماما شريعتهم الخاصة واللاتين قليلوا الاكتراث بلغتهم، تظهر لنا هذه الفقرة الى اي دى وصل المستعربون الاندلس في اعجابهم بالحضارة الاسلامية حتى في حال بقائهم على النصرانية .[3]

لقد اوجب القائد موسى بن نصير (19-97هـ) اهل الذمة دفع الجزية في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم فقد أمنهم موسى بن نصير على اموالهم ودينهم باداء الجزية ، وكان لهم رئيس يلقب بالقومس ، في حين اورد عبد العزيز بن موسى بن نصير (ت97هـ) لصاحب مدينة اربولة*بعد فتحها سنة (94هـ) خير دليل على مدى التسامح السلام مع اهل الذمة وتعايشهم في امان(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، كتاب من عبد العزيز بن موسى ابن نصير بن عبدوش انه نزل على الصلح ، وان له عهد الله وذمته وذمة نبيه (صلى الله عليه واله وصحبه وسلم) الا يقدم له ولااحد من اصحابه ولايوخر ، ولاينزع عن ملكه ، وانهم لايقتلون ولايسبون ولايفرق بينهم وبين اولادهم ولانسائهم ، ولايكرهون عن دينهم ولاتحرق كنائسهم .....).[4]

يبدو من النص ان الحكام المسلمين تركوا لهم حرية البقاء على دينهم وممارسة حرياتهم من خلال الابقاء على كنائسهم وعدم المساس بها.

لقد طبق المسلمون سياسية التسامح والتعايش مع اهل الذمة تاركين لهم ارضهم يزرعونها ويدفعون خراجها مع ترك كنائسهم ولم يستولوا عليها ، ماعدا الكنائس التي قسموها بينهم وبين النصارى ليقميوا فيها مساجد جامعة، مثل كنيسة شنت بنجت الذي اقيم فيه جامع قرطبة، كما وقد عاش النصارى في غرناطة بسلام كما

في سائر مدن الاندلس الاخرى يزاولون شعائرهم الدينية بحرية تامة مقابل دفع الجزية للمسلمين حسب نظام الشريعة الاسلامية لانهم من(اهل الكتاب)، وبالمقابل نجد احترام حكام غرناطة لهم ومعاملتهم معاملة حسنة، فابقوا لهم اماكن العبادة يقرعون فيها نواقيسهم بحرية،[5] ،وقد تجلى ذلك في قول ابن حزم(384-456هـ) :

أتيتني وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس .[6]

لقد ذكر الشاعر ابو عامر بن شهيد (923هـ-1035م) إحدى الكنائس بقرطبة وقد بات فيها مع بعض اصحابه : وقد فرشت باضغاث أس ورشت بسرور واستيناس .... وقر التواقيس يبهج سمعه وبرق الحميا برج لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحا بالزنانير ابدع توشيح.[7]

نستنتج من النصين الشعريين بان اهل الذمة (النصارى) كانوا يمارسون حقوقهم الدينية مع الابقاء على دينهم وهذا يدلنا على مدى تسامح المسلمين من خلال السماح للمستعربين لهم بقرع اجراس كنائسهم وانهم متعايشين سلميا مع جميع الطوائف.

كما ولقي النصارى في مختلف دول الطوائف المعاملة الجيدة نفسها التي كانوا يلقونها في ظل الحكومة المركزية في قرطبة* في عهد بني امية (138-756م) وقد تمتعوا في عهد بني زيري(414-484هـ) في غرناطة بالحماية ،فازدهرت أحوالهم ، واشتد ساعدهم وخاصة بعدما تبؤءا الوزير الاول يوسف بن نغزاله اليهودي(ت 459هـ) وهو الكاتب والحاجب والوزير والقائم بامور المملكة كلها ، عز اليهود به في غرناطة وجهاتها وكثروا بها ، وتولوا الاعمال والاشراف والاحكام والخراج ، فضاق الناس من ذلك ضرعا ، وضجوا الى الله تعالى بالدعاء في دفع ما نزل بهم من ارتفاع اليهود عليهم ، فصنع الشيخ الفقيه ابو اسحاق الالبيري (ت في ق 5 هـ) قصيدة يوبخ فيها باديس بن حبوس على تقريبه لليهود الى ان تم قتله، واما في عهد الامير عبد الله بن بلقين (464-484هـ) الذي مال الى الاعتماد على العديد من النصارى القشتالين واكابر الفرسان لكي يساعدوه في شؤون الحرب والادارة [8].

نتوصل من هذا النص بعد مقتل الوزير نغزاله اليهودي وعلو مكانته وشانه وتقريبه من قبل حبوس بن باديس، حتى ان شان اليهود ارتفع في عهد هذا الوزير الذي اصبح بيده امور الدولة الهامة كالخراج، فاراد الامير عبد الله بن بلقين (464-484هـ)، ان يحد من نفوذ وتسلط اليهود في غرناطة من خلال الاعتماد على الفئة المستعربة(المسيحية) من خلال الاعتماد عليهم في الشؤون الحربية والادارية.

مما يبدو ان العلاقة بين المسلمين والنصارى كانت طبيعية ، حتى انها شاعت المصاهرة بين الفئتين، ولكن زواج المسلمين من الاسبانيات فاق بكثير زواج الاسبان من المسلمات وتلك ظاهرة اجتماعية توضح مدى التاثير الاسباني على عقول وعواطف عرب الاندلس ومسلميها ، ولابد من الاشارة الى ان التاثيرات كانت متبادلة بينهم وبين مسلمي الاندلس لاسيما غرناطة فبرغم رجحان كفة ميزان المسلمين الكبير في التاثير، فان النصارى استطاعوا الى حد ما ان يؤثروا في الثقافة الاسلامية وفي حياة المجتمع الاندلسي ،ودليل تاثر المسلمين بهم التزامهم يوم الاحد من كل اسبوع عطلة رسمية مشاركين في ذلك نصارى بلدهم من جهة ، ومخالفين مسلمي الشرق من جهة ثانية، وقد تم ذلك في عهد الامير محمد بن عبد الرحمن الثاني (238-273هـ) وظل معمولا به على الاقل حتى(أواخر 5هـ / 12م) ، وكان أول من سن لكتاب السلطان واهل الخدمة تعطيل الخدمة في يوم الاحد كاتب الرسائل والتخلف عن حضور قصره (أي قصر الامير محمد) قومس بن انتينان كاتب الرسائل للامير محمد وكان نصرانيا دعا الى ذلك لنسكه ، فتبعه جميع الكتاب طلب الاستراحة من تعبهم والنظر في امورهم ، فانتحوا ذلك ، ومضى الى اليوم عليه، وقال المقري : اصبح المنصور العامري(327-392هـ) صبيحه الاحد ، وكان يوم راحة الخدمة الذي اعفوا فيه من قصد الخدمة..

لقد شارك المسلمين النصارى في اعيادهم مثل عيد ميلاد السيد المسيح وعيد رأس السنة الميلادية ، وعيد العنصرة وهو عيد (سان خوان) الواقع في الرابع والعشرين من شر حزيران وخميس نيسان أو خميس العهد الذي يسبق عيد الفصح المسيحي بثلاثة ايام ، وكانوا في هذه الاعياد يتباعون الفواكه والحلوى كما كان يفعل النصارى تماما، في حين كانت أعياد أهل غرناطة حسنة مائلة الى الاقتصاد ، والى جانب ما ذكرناه لابد من التنبيه الى التاثير الثقافي ، حيث انتشرت الرومنثية لغة النصارى بين مسلمي غرناطة ، وكانت تلك اللغة

عامية لان لغة الاسبان الفصحى والمكتوبة انذاك كانت اللغة اللاتينية وبالتالي فان الخرجات الاعجمية في الموشحات الاندلسية كان ياخذها الوشاحون عن افواه الناس وليس عن الكتب والاساتذة ، حيث كان القاضي يخامر بن عثمان الشعباني يجيد العجمية ، وان القاضي سليمان بن أسود الغافقي تحدث في مجلس حكمه مع أمراة بالعجمية، وهذا يبين لنا تاثير اللغة اللطينية على اهل قرطبة وغرناطة.[9]

كما كان للمستعربين بعضا من الاديرة كدير سان خوان دي لابنيا الذي اقامه الرهبان فوتو وفليكس في عهد عقبة بن حجاج السلولي(116-734م) شمال اسبانيا، لابد من الاشارة انه كان للمستعربين قضاء خاص بهم يحكمون فيه بموجب القانون القوطي ، وكان القاضي يسمى منهم (قاضي النصارى وقاضي العجم) ، وذلك لان النظام السائد في الاندلس قبل دخول المسلمين اليها كان النظام القوطي لذلك نجد ان المسيحيين بقوا على النظام القضائي القوطي ، كما كان لهم قاضي يعرف ب(قاضي العجم) او النصارى للفصل في منازعتهم وكان اول قاضي لهم حفص ابن عبد البر (368-463ه) وقد اتبع القوانين القوطية في الحكم بينهم، في حين تولى (حيزون) قاضيا للمستعربين بقرطبة ايام الحكم المستنصر(350-366ه) ، كما كانت تسند إليه مهمة الترجمة بين الخليفة وكبار الاسبان في بعض الاحيان .[10]

وكان للمستعربين تنظيم ديني يشرف عليه رجال دين مسيحيين وكان لهم ثلاثة (مطرانيات) أي (ابراشيات) في مناطق متعددة من الاندلس كطليطلة واشبيلة وماردة*، وكان لهم ايضا حوالي ثمانية عشر اسقفية والكثير من الاديرة وكان في قرطبة وحدها حوالي(15)، في عدت مدينة اشبيلية* في العصر الاموي مركزا اسقفيا هاما ، واول من تولى رئاسة اسقفية اشبيلية المطران المند بن غيطشة. لابد من الاشارة الى ان شكل الكنائس مصمم على هيئة صليب مدرج في شكل مربع تلك الكنائس التي اقامها النصارى الخاضعين لحكم العرب في قشتالة وليون في عصري الامارة والخلافة في الاندلس التي تتميزبالعقود والقباب ترتفع فوق اقواس على شكل حذوة حصان [11]

كان لبعض المستعربون مناصب كبيرة تبؤوها بسبب كفاءتهم ومنهم (أرطباس) قومس الاندلس الذي كان محل ثقة بعض ولاة الاندلس حتى كانوا يستشيرونه في امور البلاد والذي كان ايضا موضع تكريم الامير عبد الرحمن الداخل(138-172هـ) ، حتى انه رد عليه عشرين ضيعة وولاه القماسة، فكان هو اول قومس بالاندلس.[12]

شارك المستعربون في الناحية الاقتصادية حيث برزوا في التجارة وبرعوا فيها من خلال تنشيط حركة المرفا ، اما في الناحية العلمية فقد لمع نجمهم وحظوا بمكانة مهمه في المجتمع ولدى الحكام كالشاعرابن المزعزي النصراني الاشبيلي من نصارى اشبيلية ، ظهر في دولة المعتمد بن عباد (463-484هـ) وله ابياتا شعرية في كلبة صيد المعتمد قائلا:

لم ارى ملهى لذي اقتناص ومقنع الكاسب الحريص .[13]

2- حقوق اهل الذمة(اليهود) في الاندلس:

يشكل اليهود فئة من فئات المجتمع الاندلسي حيث يعود تاريخ دخول اليهود الى الاندلس إلى ما قبل الفتح العربي لها بمئات السنين ، ويرجح انهم قدموا الاندلس في عهد الرومان سنه (70م) ، بعد هدم اورشليم واصبحوا في تزايد مستمر لاسيما في الثلث الاول من القرن الثاني الميلادي حوالي(ستة ملايين نسمة)، ثم انخفض هذا العدد الى النصف في القرن الرابع الميلادي، عندما اخذ الرومان والقوط يضطهدونهم ويقتلون منهم ما تيسر لهم فضلا عن العداء التقليدي بين اليهودية والمسيحية ، وقد سكنوا غرناطة منذ قدومهم إلى الاندلس ، وتكاثروا فيها في عهد القوط واقاموا في حي من احيائها يشكل الان احد احياء غرناطة ، ثم تعرضوا للمضايقات من قبل ملوك القوط ، عندما فرضوا عليهم شروط اعتناق الدين المسيحي أو الهجرة ، فهياوا انفسهم للثار من تلك المعاملة السيئة ، فاستقبلوا الفاتحين العرب وساعدوهم بكل قدراتهم العسكرية والسياسية ، ولاسيما في غرناطة وطليطلة*حيث كان عددهم كبيرا ، ثم زاد عددهم وتحسن وضعهم في عهد العرب الفاتحين ، ودخل الاندلس بعد الفتح عددا كبير من يهود المغرب ، وبالمقابل كانت ثقة العرب بهم

كبيرة، فعندما احتلوا مدينة غرناطة وجدوا فيها طائفة من اليهود فاعتمدوا عليهم في حمايتها وحماية غيرها من مدن الاندلس مثل اشبيلية وقرطبة التي كانت اكبر مدينة اندلسية تضم اليهود.[14]

فقد عامل العرب اليهود معاملة طيبة عند دخولهم الاندلس ، وعهدوا اليهم بحراسة بعض المدن التي فتحوها تحت إمرة المسلمين ولايستبعد ايضا ان يكون اليهود قد ازروا المسلمين عند الفتح لتخلصيهم من ظلم القوط واظطهادهم وخاصة بعد ما سمعوا عن تسامحهم، ولما استقر المسلمون في الاندلي تخلص اليهود من ظلم واظطهاد الحكام الذين سبقوهم فقد منحهم المسلمون حريات لم يكونوا يحلمون بها منها حريه العمل والتنقل والتملك بالاضافة الى الحرية الدينية ، وكان لذلك اثره في هجرة الكثير من يهود اوروبا الى الاندلس بعد فتح المسلمين لها.[15]

وكان اليهود يتجمعون في العديد من مدن الاندلس ومنها غرناطة التي كانت تزخر باكبر جالية يهودية ولذلك سميت (اغرناطة اليهود) وبمرور الزمن بدا عدد اليهود يتزايد لاسيما في مدينة غرناطة التي كانت تعرف بمدينة اليهود، وذلك بفضل التسامح العربي ، ومنها مدينة اليسانه * المشهورة بوجود اليهود فيها الواقعة جنوب قرطبة قال عنها الادريسي : أن سكانها كانوا من اليهود فقط ، واهلها اغنياء مياسير اكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين فقط ، ولايداخلهم فيها مسلم البتة ومنها ايضا قرطبة وطليطلة واشبيلية وسرقسطة* والبيرة* التي تعرف بمدينة اليهودي ومدينة مالقة* ،وقد كانوا يحتكرون بعض المهن والحرف التي تدر عليهم أموالا طائلة كتجارة الخصيان والحرير والتوابل ، والرقيق فكان التجار اليهود يجلبون الرقيق من جليقية* وكن من اجمل الجواري ويبيعونهم الى الامراء الاندلسيين كما حدث مع الامير محمد، وبسبب هذه التجارات اصبحوا اثرياء فيرسلون بعضا من اموالهم الى اخوانهم من يهود المغرب والمشرق واوربا.[16]

لقد كان لليهود دورا هاما في الاندلس في الحياة الاقتصادية وكذلك في الحياة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الاطباء والفلاسفة والشعراء مثل (حسداي ابن شبروط) (910-970م) طبيب الخاص للخليفة الناصر (300-350هـ) الذي كان رسوله في استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الاجنبية، الذي قام بدور هام في السفارة التي اوفدها قسطنطين السابع الى الاندلس سنة(338هـ) كما اسند اليه الخليفة

الناصر(300-350هـ) مهمة دبلوماسية لدى مملكة نافار.[17]، فضلا عن الطبيب اليهودي (الياس بن صدود)(600هـ) حيث قيل فيه شعرا لبراعته ومهارته الطبية:

أنظر إلى القمرين حين تشاركنا بسناهما كان التلاقي فاسدا.[18]

مما يبدو ان اليهود حرية كاملة في الاندلس فقد مارسوا مهمه سفير للاندلس في مقابلة الممالك الاسبانية وبرز ايضا اليهود في علم الموسيقى (اسحاق بن شمعون اليهودي القرطبي) (ت في ق 6هـ) عنه انه احد عجائب الزمان في الاقتدار على الالحان ، وكان قد لزم ابن باجة(ت 533هـ-1138م) واحسن الغناء بلسانه ويده، وسنذكر له نظمّ رائق من شعره:

قم هات كاسك فالنعيم قد أتسق والعود عن داعي المسرة قد نطق.[19]

وعندما عاد الخليفة المستعين الى سدة الخلافة بقرطبة سنة (403هـ/ 1012م) بمساندة البربر ، بدا اليهود في قرطبة يتلقون معاملة سيئة من قبل البربر ، مما اضطرهم الى الانتقال إلى مدن اندلسية اخرى ، وكان اسماعيل بن يوسف بن نغزالة اليهودي من بيت مشهور في اليهود بغرناطة ، أل أمره إلى أن استوزر باديس بن حبوس(ت 464هـ) وعائلته بين تلك الوفود التي قدمت الى غرناطة ، فاصبح عدد اليهود في عهد بني زيري (خمسة عشر ألف نسمة) ، ومن الطبيعي أن يرتفع هذا العدد خلال تولي اسماعيل ابن نغزاله وابنه يوسف من بعده منصب الوزير الاول، ويبدو ان هذا الرقم مبالغ فيه ، لان عدد اليهود في مثل هذه المعادلة يصبح حوالي نصف عدد سكان غرناطة مجتمعين.

ويبدو سبب ذكر الرقم وان كان مبالغا فيه هو لبيان مدى حرية وتسامح المسلمون مع طائفة اليهود من خلال السماح لهم حتى بتبوء المناصب العليا في الدولة.

وفي سنة (459هـ/ 1066م) قتل ابن نغزاله ، لانه استهزا بالمسلمين واقسم ان ينظم جميع القرآن الكريم في اشعار وموشحات يتغنى بها فأل أمره الى قتله صنهاجة رجال الدولة بامر غير الملك ونهبوا دور اليهود وقتلوهم، وعلى اثر هذه الحادثة هرب ابنه يوسف الى افريقيا وكتب منها معاتبا اهل غرناطة حول مقتل والده.[20]

لقد اصبح عدد اليهود في غرناطة كبيرا جدا، وعندما سقطت غرناطة في ايدي الاسبان سنة(897هـ/ 1492م) ، كان عدد اليهود فيها حوالي خمسة عشر الفا ، وقيل كان عددهم في غرناطة سنة (900هـ/ 1494م) ، حوالي عشرين الف نسمة مما يعادل نسبة 10% من شعب غرناطة ، ومن الملاحظ اندماج اليهود في جميع فئات المجتمع الغرناطي ، فقد عرف عنهم انهم اثرياء وكاد عملهم ينحصر في التجارة ، وامتلكوا بغرناطة في عصر الولاة (92-138هـ)(710/ 755م) مؤسسات تجارية ، وفي فترة الخلافة (317هـ/928م) اصبحت غرناطة مركزا لنشاطهم ، واتقنوا اللغة العربية الى جانب لغتهم العبرية واللغتين الرومنثية واللاتينية اللتين تعلموهما منذ ايام الرومان والقوط ، فساعدهم في ذلك عملهم الذي انحصر بشكل كبير في تجارة العبيد والجواري والخصيان والحرير والفرو، وترك لهم بنو زيري حرية ممارسة عقيدتهم وحق مزاولة شعائرهم الدينية وحرية التنظيم الداخلي لجماعتهم ، فكان للمستعربين مؤسساتهم الادارية والقضائية ، وحتى كان لهم مدرسة دينية خاصة بهم ، حتى ان الكثير منهم اعتنق الدين الاسلامي فيما بعد.

يبدو ان لليهود دورا واضحا في تقدم مدينة غرناطة في النواحي الاجتماعية والسياسية والفكرية والحضارية ، وذلك من خلال المناصب العليا التي احتلوها في دولة بني زيري سواء في القصر الملكي او في الادارات العامة، مثالا على ما نقول ان موسى بن يعقوب بن عزرا قد تولى منصب صاحب الشرطة في عهد الامير عبد الله بن بلقين (464-484هـ) ، واهم تلك المناصب منصب الوزير الاول ، وكان قد توصل اليه كل من اسماعيل ابن نغزالة وابنه يوسف في عهدي حبوس بن ماكسن(414هـ) وابنه باديس بن حبوس من بعده (ت 464هـ) فالاهمية التي بلغتها الجالية اليهودية قديما بغرناطة من حيث عددها وغناها ورخاؤها قد تضاعفت في ظل الوزارة التي تولاها اسماعيل وابنه ، ولعل السبب في تقدم غرناطة وازدهارها في جميع ادارات الدولة في عهد بنو زيري(414-484هـ) يعود الفضل الى نفوذ وقوة الوزير اسماعيل ، حيث ظهرت غرناطة على سائر مدن الاندلس ، وبلغت أوجها ، وصارت مدينة اداب اليهود، ولما كان اليهود اغنياء فاصبحت في ايديهم معظم الثروة حتى اخذوا يتدخلون في شؤون بني زيري حتى سيطروا على مقدرات غرناطة ، ويبدو من الممكن ان

أخوات اسماعيل ابن نغزاله او عماته اوبناته قد شكلن جزءا من حريم زاوي بن زيري وباديس بن حبوس كزوجات بالاسم.[21]

مما يلحظ أن اليهود قد تبؤا مكانة هامة في الاندلس وغرناطة تحديدا لاسيما بعد تبوا الوزير اليهودي اسماعيل ابن نغزالة منصب الوزير الاول وقربه الشديد من حكام بنو زيري خاصة في عهد باديس بن حبوس الذي علاّ شانهم ، ومما ادى الى وجود مصاهرات بين عائلة اليهودي اسماعيل ابن نغزالة والعائلة الحاكمة في غرناطة بنو زيري.

لقد حصل اليهود في عهد بني الاحمر (729-798هـ) نوعا من الهدوء بفضل رعاية الحكام شؤونهم وتامين مصالحهم ، ولم يقم اليهود باية انتفاضة معادية ، وعاملوها كسائر اهل الكتاب والذميين الذي إمن الاسلام حمايتهم ، وجعل لهم لباس مختلف فكانوا يعتمرون قلنسوة صفراء اذ لاسبيل لليهودي ان يتعمم ، كما ان ابا الوليد اسماعيل الاول (1279-1325م) اجبرهم على وضع شارة تميزهم عن المسلمين" اخذ يهود الذمة بالتزام سمة تشهرهم وشارة تميزهم ، واما النساء اليهوديات فكن يعلقن بارجلهن جلاجل صغيرة، كما كان بنو الاحمر من اكثر الملوك تسامحا وافضلهم في الحفاظ على مصالحهم وتامين الحرية في ممارسة شعائرهم وتقاليدهم، حيث استقبل محمد الخامس (300) عائلة يهودية هربت من اظطهاد القشتاليين، فضلا عن ذلك لقد عرف اليهود اللغة العربية والقشتالية حيث جعلت بعضهم يعملون في الترجمة ومن المترجمين المشهورين عذرا الرندي الذي قام بدور الوسيط وتوضيح الاتفاقات ، كما ان أبا عبد الله اخر ملوك بني الاحمر كان يستعين بمترجمين يهوديين هما اسحق برودنيل وصهره بودا.[22]

مما يبدو استعمال الجلاجل الصغيرة للمرأة اليهودية لتميزها عن المرأة المسلمة او المستعربة، وقد كان لليهود ايضا نظام قضائي واداري يشبه نظام المسيحين ، وهذا دليل على تمتع اهل الذمه (اليهود على كافة حرياتهم وحقوقهم في ظل الحكم الاسلامي في الاندلس .[23]

وصف المستشرق اميريكو كاسترو اليهود وتعايشهم مع المسلمين قائلا: فلم يكن لليهود أية عمارة قط عبر التاريخ الا في اسبانيا الاسلامية ،ولكن معابدهم رغم تميزها كانت ذات صبغة اسلامية ، وقد كان لهم بجانب

العمارة أدب وثقافة متميزين بطوابع عبرية مثلهما مثل العمارة ، ولكن ذلك ما كان ليكون دون احتكاكهم بالإسلام فكما صبغت معابدهم اسلامية ، فيما قلنا منذ قليل فقد كتب اعظم كتابهم بالعربية ولولا اتصالهم بالعرب ما كانوا ابدا ليتحتفلوا بالفلسفة الدينية فهم في الاول وفي الاخر تابعين ايضا للحضارة العربية ، الا ان اهمالهم أو دراستهم كتيار مواز وأنى غير ممكن ، فلاشك ان تاريخ اسبانيا كان نسيجا اسلاميا مسيحيا يهوديا ، وكل طائفة من هولاء قد حفره لها وجود الاخرين).[24]

وفي الختام سكن اليهود في المدن الكبرى في غرناطة ولهم احيائهم ودروبهم مع بيوت صغيرة متلاصقة ودروب ضيقة ، وكان لهذه الاحياء معبدها وحماماتها ، ونجد ايضا ان اليهود كانت لهم بيوتهم في مدينة مالقة ايضا.

جدول باسماء الاماكن التي تواجد فيها المستعربون وبنائهم العديد من الكنائس :

-قرطبة تجاوزفيها اكثرمن (5) كنائس

-طليطلة تجاوزفيها اكثرمن اربع كنائس

-قشتالة وليون تجاوزعدد الكنائس اكثرمن اربع كنائس.

كنائس جيرندة في سنة(410ه)

كنائس وادي الحجارة

-كنائس شانت ياقب

-كنائس جليقية.

جدول باماكن تواجد اكثرية اليهود في هذه المناطق:

-غرناطة

ب-البيرة المسماة بمدينة اليهود

ت-اليسانة

ث-قرطبة ج-قرطبة ح-مالقة خ-اشبيلية د-طليطلة.

الكنائس كانت موجودة

النتائج

نتوصل من خلال بحثنا الى العديد من النتائج وهي كالاتي :

1-ان المجتمع الاندلسي كانت تربطه وحدة بين مختلف الاديان ذات الاصول المختلفة فلو نظرنا الى فئات المجتمع لوجدناه مجتمعا يجمع بين المولدون والمستعربون واليهود والصقالبة تحت نظام متسامح .

2-لقد مارس اليهود دور الرابطة بين المسلمين والمستعربين من خلال نقل صيغ الحياة الاسلامية فتقبل منهم لانهم ليسوا اسلاما ، وبذلك كان دورهم ليس اقل من دور المستعربين في نقل الحضارة الاسلامية الى اسبانيا المسيحية.

3-من الملاحظ ان لاهل الذمة (المستعربين واليهود) حقوقهم وواجباتهم والبقاء على ممارسة دياناتهم ، فضلا عن مشاركتهم في النواحي التجارية والعلمية والاقتصادية في المجتمع الاندلسي متعايشين بتسامح وامان مع المسلمين .

الهوامش

1-هيكل ، احمد ، الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، ط7، دار المعارف ، القاهرة، 1993، ص38.

2- ينظر: طويل، مريم قاسم ، مملكة غرناطة في عهد بني زيري(403-483هـ)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص؛ هيكل ، الادب الاندلسي، ص40.

3- في تاريخ اسبانيا الاسلامية، ترجمة: محمد رضا المصري ،ط2، بيروت ،1998، ص67.

4-الحميري، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم،(ت 886هـ)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1975، ص62-63؛

5- دويدار، حسن يوسف، المجتمع الاسلامي في العصر الاموي(138- 422هـ)،ط1، مطبعة الحسين الاسلامية، مصر، 1994،ص39؛ طويل، غرناطة، 251.

6-ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد(ت 456ه) ،طوق الحمامة في الالفة والالاف، تح: حسين كمال الصيرفي ، تقديم : ابراهيم الابياري ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة، 1964، ص347.

7- المقري، احمد بن محمد التلسماني،(1041ه)، نفح الطيب من عصن الاندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988 ،ج1، ص246.

*مدينة في وسط الاندلس وهي على غربي النهر الكبير الذي عليه اشبيلية، وهذا النهر انما حسن جانباه عند اشبيلية، كانت سرير ملك بني امية، الزهري، الزهري، ابو عبد الله محمد بن ابي بكر، الجعرافيا، تح: محمد حاج صادق، المعهد الفرنسي، دمشق، 1968، ص49.

8-ينظر: مؤلف مجهول ، تاريخ الاندلس، تح: عبد القادر بوباية، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت ، 2009،ص256؛ طويل، غرناطة، ص251.

9- ينظر: دويدار، المجتمع الاندلسي، ص39-40؛ طويل، غرناطة، ص151.

10-المقري، نفح الطيب، ج1، ص182؛ هيكل، الادب الاندلسي، ص39؛ ابو زيدون، وديع، تاريخ الاندلس حتى سقوط الخلافة في قرطبة ،ط1، بيروت، 2005.، ص151.

*اشبيلية: مدينة كبيرة بالاندلس بقرب لبة، امتازت بطيب الهواء، وعذوبة الماء،وكثرة الثمرات من كل نوع، وبها قاعدة ملك الاندلس، الزهري، 39

11-ابو زيدون، وديع، تاريخ الاندلس حتى سقوط الخلافة في قرطبة ،ط1، بيروت ، 2005. ، ص152؛ دويدار، المجتمع الاندلسي، ص38.

12- ابن القوطية، ابو بكر محمد،(ت 367ه)، افتتاح الاندلس، تح: ابراهيم الابياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989، ص63.

13- ابن سعيد ، ابو الحسن علي بن سعيد بن موسى،(ت 685ه)، اختصار القدح المحلى في تاريخ المحلى ، تح: خليل المنصور، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج1، ص195.

*اليسانة:هي مدينة اليهود تقع على بعد اربعون ميلا من قرطبة ، الادريسي، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس الحسني، (ت 560ه)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1960، ص 571

*البيرة: بين شرق وغرب قرطبة وهي مدينة ازلية، الادريسي، نزهة المشتاق، ص77.

*سرقسطة: هي في الثغر الاعلى وهي جوف من بلنسية وشرق من قرطبة، الحميري، الروض المعطار، ص187.

* مدينة منيعة كبيرة بالاندلس، من اجل مدنها قدرا واكثرها خيرا، تسمى تسمى مدينة الملوك، ولها تربة طيبة وهواء لطيف، ينظر: اليعقوبي، ، احمد بن ابي يعقوب بن اسحاق، (ت 248ه)، البلدان، تح: محمد ضناوي، بيروت، 2002. ،ص48؛ القزويني ،زكريا بن محمد بن محمود،(ت 682ه)، اثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1960،ج1،ص224.

14-واط، تاريخ اسبانيا، ص68؛ الركابي، جودت، في الادب الاندلسي، دار المعارف ، القاهرة، 1980، ص41.

15-دويدار، المجتمع الاندلسي، ص48؛ هيكل ، الادب الاندلسي، ص38.

*مالقة: مدينة بالاندلس على شاطى البحر، عليها سور صخروالبحر في قبليها، وهي حسنة عامرة اهلة كثيرة الديار، الادريسي، نزهة المشتاق،ج1،ص183.

16-ابن سعيد، المغرب، ج1، ص99؛ الركابي، في الادب الاندلسي، ص41.

17- دويدار، المجتمع الاندلسي، ص46؛ هيكل ، الادب الاندلسي، ص40.

18-ابن سعيد، المغرب، ج1، ص259.

19- ابن سعيد، المغرب، ج1،ص80.

20- ابن سعيد، المغرب، ج1، 90-91؛ -ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن سعيد ، ت(776ه)، ال اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، (1956)، تح: ليفي بروفنسال، ط2، دار المكشوف، لبنان، 1956، ق2، ص230؛ الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق: محمد عبد الله عنان ،مكتبة الخانجي،بيروت،1972، ج1، ص434.

21- ابن الخطيب، الاحاطة، ج1، ص435؛ دويدار، المجتمع الاندلسي، ص49؛ طويل، غرناطة،ص251.

22- ابن الخطيب، الاحاطة، ج1، ص439؛ ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن سعيد ، ت(776هـ)، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الافاق ، بيروت، 1978، ص84؛ فرحات، يوسف شكري ، غرناطة في ظل بني الاحمر ، ط1، دار الجيل ، بيروت، 1993، ص97-98.

23- ابو زيدون، تاريخ الاندلس، ص151.

24-حضارة الاسلام في اسبانيا، نرجمة: سليمان العطار، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1983، ص193.

قائمة المصادروالمراجع

الادريسي، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس الحسني، (ت 560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1960.

1-ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد(ت 456هـ) ،طوق الحمامة في الالفة والالاف، تح: حسين كمال الصيرفي ، تقديم : ابراهيم الابياري ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة، 1964.

2- الحميري، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم،(ت 886هـ)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1975.

3- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن سعيد ، ت(776هـ)، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق: محمد عبد الله عنان ،مكتبة الخانجي،بيروت،1972.

أ-اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الافاق ، بيروت، 1978.

ب-ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن سعيد ، ت(776هـ)، ال اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، (1956)، تح: ليفي بروفنسال، ط2، دار المكشوف، لبنان، 1956.

ت- الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق: محمد عبد الله عنان ،مكتبة الخانجي،بيروت، 1972.

4- ابن سعيد ، ابو الحسن علي بن سعيد بن موسى،(ت 685هـ)، اختصار القدح المحلى في تاريخ المحلى ، تح: خليل المنصور، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

5-القزويني ،زكريا بن محمد بن محمود،(ت 682ه)، اثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1960.

6- ابن القوطية، ابو بكر محمد،(ت 367ه)، افتتاح الاندلس، تح: ابراهيم الابياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989.

7- المقري، احمد بن محمد التلسماني،(1041ه)، نفح الطيب من عصن الاندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988

8- مؤلف مجهول ، تاريخ الاندلس، تح: عبد القادر بوباية، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت ، 2009

9-القزويني ،زكريا بن محمد بن محمود،(ت 682ه)، اثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1960

المراجع

1-كاسترو، امريكيو، حضارة الاسلام في اسبانيا، نرجمة: سليمان العطار، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1983..

2- دويدار، حسن يوسف، المجتمع الاسلامي في العصر الاموي(138- 422ه)،ط1، مطبعة الحسين الاسلامية، مصر.

3- الركابي، جودت، في الادب الاندلسي، دار المعارف ، القاهرة، 1980.

4-ابو زيدون، وديع، تاريخ الاندلس حتى سقوط الخلافة في قرطبة ،ط1، بيروت ، 2005.

5- طويل، مريم قاسم ، مملكة غرناطة في عهد بني زيري(403-483ه)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.

6- فرحات، يوسف شكري ، غرناطة في ظل بني الاحمر ، ط1، دار الجيل ، بيروت، 1993.

7- واط، مونتغمري، تاريخ اسبانيا، ص68؛ الركابي، جودت، في الادب الاندلسي، دار المعارف ، القاهرة، 1980.

8- هيكل ، احمد ، الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، ط7، دار المعارف ، القاهرة، 1993.